عود قرنفل

الجزء الثاني

الاء عبداللاه حسين

معاناة

"تم رفض العمل لعدم توافقه مع سياسة الدار" زفرت نور بقوة وهي تقرأ الرسالة التي أتتها منذ قليل على بريدها من دار النشر الرابعة المجانية التي كانت قد أرسلت إليها روايتها منذ أربعة أشهر، شعرت نور بغصة داخلها وإحباط ممزوج بفشل ذريع وعادت تزفر بضيق شديد قائلة:" لقد مللت من تكرار الرفض، لا أعلم السبب ولا حتى النقد كي أحاول من جديد، لا أعلم سبب الرفض، لمَ يَقبلون استلام الأعمال إن كانوا سيرفضونها هكذا بدون تبرير أو نقد سلبي كان أم إيجابي أي نقد المهم أن ينقدوا وألا يكتفوا بالرفض فقط، ثم ما هي سياسة الدار هذه التي لا تتوافق معها روايتي؟! لم كل هذا التعقيد؟! إن كانوا سيرفضون من الأساس فلم الإعلانات عن موعد استقبال الأعمال مجانا؟! لقد آيست حقاً من الرفض المتكرر، أشعر بأني فاشلة لا أجيد شيئاً حتى أقل أحلامي عجزت عن تحقيقها".

أغلقت نور الحاسوب وتوجهت إلى زاويتها المنعزلة لتبكي حظها فهذا متنفسها كلما ضربتها عاصفة الفشل أو الإحباط، تذكرت نور موافقة دارين قبل الرفض الرابع ولكنها هذه المرة من رفض العرض فلقد كان مجحفاً بحق عملها وتذكرت المبلغ المطلوب لنشر روايتها فقالت في حنق والدموع تفيض من عينيها:" يريدون عشرة آلاف لطباعة رواية وعرضها، ومن أين لي بهذا المال؟! تباً لسياسة الاستغلال تلك لو كان معي المال لنشرتها بنفسي ولما احتجت لأحد، آاااه يا حظي لسنوات أكتب وأراجع وأنسق وأعرض على غيري على أمل بسهولة النشر ولكن تأتي الحقيقة بما تحمل من خيبات".

بعد سنة من هذا الفشل حاولت نور إرسال عملها للمرة العاشرة بعد تفكير عميق وإقناع من صديقاتها وعائلتها بروعة عملها وأنه هذه المرة سينشر بالتأكيد ولكن يكفيها الإيمان بجودته لذلك ضغطت نور زر إرسال لترسل العمل مع ملخص له وسيرة لها ، وما هي إلا دقائق حتى آتتها الرسالة المسجلة على وصول عملها ومدة انتظار أربعة أشهر لمراجعة العمل قبل الرد عليها بالسلب أو الإيجاب وبشرط ألا ترسل العمل لأي دار أخرى إلا بعد الرد.

لا يستطيع أحد أن يصف حالة نور طيلة هذه المدة فقد بدت حالتها كطالبة شهادة ثانوية منتظرة أمام موقع النتيجة تحميل نتيجة تعبها المتواصل لثلاثة أعوام مليئة بشد الأعصاب والضغط النفسي والصداع والمراجعات المتواصلة لأيام بدون نوم أو راحة، كانت كبائعة الكبريت في القصص الخيالية تجوب الطرقات في الثلج حافية القدمين لتبيع ما لديها من كبريت لشراء حذاء يقي قدمها من شدة البرد ولفحاته.

كانت حالتها كأم أختطف طفلها وظلت أعواماً تبحث عنه على أمل أن يعود لأحضانها يوماً. تلك كانت حالتها مع محاولات متعددة لتلطيف الجو من عائلتها وصديقاتها بالإضافة لغوصها في عالمها الآخر في كتابة المزيد من الأعمال الأخرى كانت تلك حالة نور وها قد حانت اللحظة الحاسمة بالرد فتوجهت لحاسوبها ودعت بأمل داخل ألم:" يا رب" ثم فتحت الرسالة التي كان مضمونها كالتالي:" مرحبا أستاذة نور نود أن نعلمك بأنه تم قبول عملك ولكن بشرط المناصفة لحصول العمل على ٪٦٠ من تقييمات المسئولين وقيمة المناصفة ٦٠٠٠ جنيه

مصري لا غير على أن يتم إرسال الرد النهائي قبل انتهاء الأسبوع الحالي لنرسل لك العقد، مع تمنياتنا لكِ بالتفوق والتألق دائما".

أغلقت نور الحاسوب وتوجهت لغرفة الصالون حيث تنتظرها العائلة بشغف متحدثين عن موافقة الدار بالتأكيد لعملها فهو رائع الكتابة والتنسيق والموضوع ذا رؤية وأهمية وليس كالمعروض في الساحة من سخافات وإسقاطات وإباحيات مكتوبة، لتلفظ الأم بفرح عند رؤية نور:" وافقوا؟! أليس كذلك؟! كنت أعلم أنكِ ناجحة في الكتابة" وعقبّ عليها الوالد والإخوة" بالتأكيد"..

لتنفرج من شفتي نور ضحكة عالية هيستيرية وتجيب:" بالطبع وافقوا كيف لا يوافقوا وقد سهرت أكثر من عام في كتابتها، كيف لا يوافقوا وقد اتخذت موضوعاً مهماً في كتاباتها، كيف لا يوافقوا وقد عشقت الكتابة أكثر من دراستي، كيف لا يوافقوا وقد وضعت كل مشاعري وأحاسيسي ومزجتها مزجاً بحروف كتابتي، كيف لا يوافقوا وقد آمنتم بي وشجعتموني ولم تثبطوني لحظة، كيف لا يوافقوا على رواية سليمة خالية من الإسقاطات اللغوية والإملائية والإباحية في الوصف!! بالطبع لا يحق لهم الرفض ولكنهم ..للأسف.. لم يوافقوا إلا بمالٍ وهذا ليس منصفاً لتعبي و لا لجهدي المتواصل ولا لسلامة لغتي ووصفي.. نعم لم يوافقوا!!

"ها هي الحقيقة المؤلمة لأغلب الكُتّاب في بلادنا العربية لا تتاح لهم الفرصة لنشر أعمالهم للعامة إلا بشروط مجحفة للأسف، فقد صارت الكتابة سوقاً تجارية لمعظم دور النشر وليس جميعها لأكن منصفة، ومن يطغون الآن على الشاشة هم الشعراء بكلماتٍ ساقطة والكُتّاب بأوصاف خيالية ذات طابع رومانسي فوق الحد أو فوق الثامنة عشرة إلا من رحم ربي.."

النهاية

لماذا يلحدون

لا أعلم منذ متى وهذا الشاب على حالته المخفية تلك ولكني أعلم جيداً منذ متى بدأت حالته الظاهرية بالذبول، فلقد راقبت طريقه جيداً حتى وصل إلى هنا وحيداً طريداً واهناً كورقة شجر ذابلة أوشكت على التساقط من أعلى الغصن..

مرحباً أنا النجمة نور حصلت على اسمي بسبب وهجي النادر عكس باقي النجمات، فأنا كاسمي أشع نوراً لأهدي الضالين طريقهم حتى يصلوا لمبتغاهم، بدأت عملي كالمعتاد باكراً بمجرد مغادرة الشمس؛ استلمت دوريتي، وهنالك رأيته؛ شاباً نشيطاً جميل الهيئة فسبحان الخالق، أبيض البشرة أزرق العينين، كان يهيم بمفرده في صحراء مصرنا الحبيبة، ظننته سائحاً مستكشفاً بعتاده وحقيبته التي يحملها خلف ظهره، ولكن من وجهه بدا حائراً، فهو يكثر النظر للسماء، إلينا نحن النجوم، للقمر حتى كما إنه ينظر للشمس والسحب أيضاً فمن حديث الثرثارة شمس علمت ذلك.

بدأ رحلته منذ أسبوعٍ فاليوم أتم أسبوعه، لو نظر إليه بنو البشر لظنوه مجنوناً لسرحانه ذاك في السماء، فهو يكتفي بالمراقبة أغلب الأوقات، لا أحبذ أن يراقبني أحدهم بنظرات الشك، لذا أحببت نظرات هذا الشاب فهي لا توحي بالشك والترقب بل بانتظار الأجوبة، هو يريد أن يجيبه أحدهم.

خمنت في البداية كونه مستكشفاً لكن تخميني حمل نصف الحقيقة فهو باحث عن اليقين؛ ألا تعلمون مقصدي؟! حسناً إنه يريد أجوبة لاستفسارات عقله وقلبه وروحه فثلاثتهم هائمين تائهين، هل فهمتم؟! حسناً، لا بأس فأحياناً يتحول حديثي للغز يصعب عليكم يا بنو البشر فهمه فهذه طبيعتنا نحن النجوم..

على أية حال ما قصدته هو أنه يبحث عن الإيمان، هل وضحت الصورة لكم؟! جيد.. إذاً سأكمل؛

السؤال هو كيف علمت وأنا بمكاني الشاهق هذا بخبر هذا التائه، وللإجابة عليه، عليكم بالاستماع لبداية قصتي..

كنت أشعر بالضجر بعكس إخوتي العاملين في جد ونشاط، لذا سرحت بعيداً عن مجرتي أتأمل خلق الخالق سبحانه، وإذ بشاب يلفت ناظريّ، كان وحيداً يجلس على الرمال الباردة ليلاً يتأمل إخوتي، ويكلمهم كان يحدثهم عن معاناته الطويلة وبحثه المتواصل للحقيقة، جملتين جذبا سمعي " يا سماء أخبريني من أوجدك؟! ويا نجوم حدثيني عن سر صنعك"

ثم تأوه في حزن وقال:" أرجوكم دلوني ولو بإشارة وحيدة فأطرد حيرتي"

خمنت فوراً داءه فهو يبحث عن اليقين، عن الإيمان بالله ولا يجد دواءه، لذا راقبته طيلة أسبوع حتى علمت قصته فقد كان يقص علينا نحن النجوم قصته كل يوم حتى حفظناها..

هو شاب عشريني ولد في أسرة أوروبية لا تدين بأية دين ، بدأ بحثه عن دين منذ رافق أحد الرهبان البوذيين فآمن بدينهم وحذا حذوهم حتى أصابه الشك أكثر فترك هذا الدين ليدخل بعدها في دين جديد رغم حريته واستمتاعه بكل ملذات الدنيا إلا أنه لم يذق طعم الراحة قط، فانتقل من دين لدين ومن معتقد لآخر، حتى حدث ما غير حياته بالكامل..

فلقد تعرض لحادث سيارة قتل بسكره شيخاً عجوزاً مسلماً، كاد أن يفقد شبابه بين جدران السجن ولكن ابن العجوز تنازل عن قضية والده ليطلق سراح الشاب ويعالج من إدمانه بعد ذلك، خرج الشاب من المشفى صفحة بيضاء لا دين له ولا ماضٍ يخجل منه ولا حتى رفقة أو أصدقاء فقد تخلى عنه الجميع، خرج ليجد نفسه وحيداً طريداً يجوب الطرقات والبلدان واحدة تلو الأخرى عله يجد ضالته..

في يوم من الأيام أي قبل شهرٍ من اليوم قابل ابن العجوز المغدور، تعرف عليه من هيئته السمحة ووجهه البشوش الضاحك، بمجرد رؤيته ركض إليه محتضناً إياه يذرف دموع الفرح الممتزجة بالألم والندم لفعلته السابقة، لم يبتعد عنه إلا عندما سمع ما أراحه:" فلتأتي معي فأنت اليوم ضيفي" ليذهبا بعدها سوياً إلى منزل ابن المغدور..

بعد الدردشة وتقديم واجب الضيافة سأله الشاب سؤاله المتردد بداخله:" لماذا سحبت الشكوى ضدي؟!" ليجيبه الابن بابتسامة:" هكذا طلب والدي قبل وفاته بثوانٍ" لينظر له الشاب بصدمة قائلاً:" ألم يقتل فوراً، ظننتني قتلته ". ليجيب الابن باسماً بعينين مغرورقتين بالدموع:" لا لم يكن قد آن أجله وقتها، فلقد ذهبنا للمشفى وبعد الحادث بيوم لقى ربه صائماً فرحاً وقبلها أخبرني بأن أسحب الشكوى لأنك لم تقصد أذيته بل كان خطئاً غير مقصوداً، ثم إنه سامحك فأنت مازلت شاباً في مقتبل العمر فلماذا ينهي طريقك بشكوى"

لم يصدق الشاب ما سمع وأطلق العنان لدموعه لتغرق وجهه، فبكى حتى شعر بقدر من الراحة، ومذ عرف هذا الابن وهما لا يفترقان، أراد أن يسدد دينه للعجوز فساعد ابنه في أعماله فصار له نعم الرفيق ونعم الشريك في عمله، وقرر أن يتعلم المزيد عن الإسلام، نصحه رفيقه المسلم بأن أفضل طريقة للاستكشاف والبحث هي بالتأمل والدراسة المتعمقة، وللتأمل عليه أن يختلي بنفسه في إحدى صور الطبيعة الخلابة التي يعشقها ويشعر بالراحة فيها.

وقد كان، فأفضل مكان يعشقه الشاب هو الصحراء، ربما يبدو لمعظم بنو جنسه أمراً غريباً، فالصحراء أرض جرداء لا زرع بها ولا ماء، لا يوجد بها سوى الرمال والمزيد من الرمال التي تلفها من كل جانب، ولا يجب أن ننسى درجة الحرارة المرتفعة نهاراً والبرودة القارسة ليلاً، والحيوانات والزواحف الضارية المختبئة هنا وهناك وأهم شيء هو الوحدة و هذا ما أحبه الشاب .

لذا كان قراره الصحراء وبالفعل أعد عتاده وجهز أموره وانطلق بعدها حيث وجهته، فكان في بداية سفره نشيطاً بداخله الكثير من الاستفسارات والأسئلة التي تحتاج لأجوبة وحقائق، أمضى يومه الأول بتأمل ما حوله في الطريق من رمالٍ وطبيعةٍ خلابة أسرت لبه وقلبه.

جذب نظره الخضرة المنتشرة في الأرجاء، لسان حاله كان يتعجب من تواجد نبات بمكان لا ماء به أو حياة حتى ربما تمطر الأمطار بين الحين والآخر لكن الأمر بعكس الحضر وتواجد الناس..

في الليلة الأولى عندما جلس للراحة نصب خيمته وأشعل النار ليأكل ويتغلغل الدفء بجسده، رفع رأسه للسماء لرؤية النجوم المتلألئة التي زينت السماء بأبهى شكل، وسألها في هدوء:" لكِ خالق أليس كذلك؟! بالتأكيد لكِ خالق وإلا كيف تواجدت مثل هذه اللوحة البديعة التي أرى الآن؟!" انطوى الليل بحقيقة واحدة بداخله وهو وجود إله للكون بلا شك، والدليل الطبيعة والسماء والنجوم والنبات المزروع بدون تدخل بشري..

توالت الأيام وتتابعت الليالي حتى وصل لنهاية الأسبوع ليكمل هو قصته بلسانه ونكون نحن المستمعين لا الراوين لقصته..

بدت الحقائق الواحدة تلو الأخرى بالتشابك أمام الشاب وبدأ اليقين وأخيراً يطرق باب قلبه وروحه بدأت بالاطمئنان، فوجود خالق للكون كامل بصفاته وقواه الهائلة تدحض كل ادعاءات كون الإله بهيئة بشرية كما تدعي بعض الديانات ويؤمن به معظم البشر، كما إن نظرنا للسماء والنجوم والشمس والقمر والسحب التي تتشكل لعلمنا علم اليقين بأن هذه قدرة قوية وليست بشرية كما يدعي البعض، فالبشر فاشلون في خلق بعوضة حتى فكيف بهذه الخلائق المتعددة من حولنا..

الكون الفسيح بمعجزاته وأركانه يدل على وجود خالق له، ليس شرطاً أن نراه فليس كل ما نؤمن بوجوده نراه كالجاذبية والهواء والروح، أدرك الشاب كل هذا نتيجة تأمله طيلة أسبوع كامل نتيجة لتأمله الصحراء وما يغلفها..

قرر الشاب قراره جيداً بعد تيقن واستكشاف فأمسك بهاتفه وطلب آخر رقم تواصل معه وأعطاه البشرى:" لقد آمنت بالله فخبرني كيف الإسلام يا رفيقي؟!" وهنا انتهت قصة الشك لدى الشاب وبدأت قصة إسلامه وإيمانه بالواحد الأحد..

النهاية

ثغرة أمل

الثاني عشر من أبريل من عام الأربعين بعد الألفين..

ظلام دامس، رائحة قذرة تسد الأنوف، برد قارس يلفح الأجساد، تأوهات تصم الآذان، أصوات مخيفة تجوب الأرجاء. يد صغيرة تقترب ببطء من وجه امرأة تبدو من لون شعرها في العشرين من عمرها ربما أو في الثلاثين، لم الاستغراب فهنا لا نحدد العمر إلا بلون الشعر نظرا لتشابه الأوجه كلها والملابس. فكلها أوجه تغطيها القذارة وملابس تكاد أن تكون بالية.

تحسست اليد الصغيرة وجه الشابة العشرينية وخرج صوت طفولي يسأل في أمل:" متى سنخرج من هنا يا أمي؟" لتتحسس يد الأم شعر طفلتها في حنان مجيبة بنفس الأمل:" قريباً.. قريباً سنخرج يا طفلتي العزيزة؟" لتسألها مرة أخرى الطفلة ولكن بيأس:" ومتى هذا القريباً سيأتي يا أمي؟ لقد سئمت من تلك الكلمة فلقد مضت مدة طويلة منذ آخر قريباً وعدتني بها." لترتسم ملامح الحزن على ما تبقى من وجه الأم نظيفاً لتسرع مجيبة:" لا بأس فلقد اقتربت تلك القريباً جداً يا طفلتي فقط أيام وسنخرج من هنا كما وعدنا القائد، حسنا بضعة أيام وسنخرج وهذا وعد حقيقي مني هذه المرة". زفرت الأم بضيق فهذه عاشر مرة هذا الشهر تعد طفلتها باقتراب الخروج من تلك القذارة التي فرضها عليهم الجحيم القابع في الأعلى، لا تعلم إن كانت تكذب عليها هي أم القائد الذي يبعد عنهم بضعة أميال من مكانها هذا.

دقائق وغفت الصغيرة على ساق والدتها التي أراحتها ببطء على الفراش المتهالك من الأقمشة البالية المصطفة فوق بعضها البعض لتنهض وتتجه حيث القائد، وبعد نصف ساعة وصلت لمكان القائد الذي ما إن رآها حتى تأفف وظهرت على وجهه علامات الضيق وسرعان ما قال بلهجة غاضبة:" ليس بعد! لقد سئمت حقا من سؤالك المتكرر هذا، وسئمت أكثر من جوابي السلبي عليه، فلماذا تصرين عليه كل أسبوع؟" لتجيبه في حنق:" لأنك تعلم سبب سؤالي المتكرر هذا، وتعلم أني لا أستطيع الكذب عليها أكثر من هذا، لقد سئمت من كل هذا، سئمت من القذارة المدفونين بها، سئمت من نظرة يأسها، من خيبة أملها، لا أستطيع التحمل أكثر". لتجهش بالبكاء وتسقط أرضاً فيقترب منها القائد محتضناً إياها قائلاً في ألم:" أعلم أنك تحزنين لحزنها وتتألمين لألمها ولكني حقاً لا أملك أية قوة لإخراجكم من هذه القذارة وكلما تذكرت ضعفي هذا ينزف قلبي أطناناً من الألم والحسرة، أيعقل أن يلقي الأب بابنته وحفيدته في جحيم برضاه؟ أيعقل يا ابنتي هذا؟" لتنظر إليه الابنة والدموع تتساقط من عينيها فتجيبه:" بالطبع لا، وأنا أعلم هذا ولا أتهمك بالتقصير ولكني مجبرة على هذا مثلك فهي ابنتي قطعة من قلبي ولا أستطيع أن أراها يائسة هكذا، إنها طفلة لم تكمل عامها الرابع بعد، لا أستطيع أن أتخيل نفسي مكانها كيف لطفلة صغيرة أن تولد يتيمة الأب في مكان قذر كهذا المكان وتكبر فيه ولا تعلم سواه ولا تعلم سبب يتمها؟ كيف لطفلة أن تنعم في طبيعة كهذه فهي لم ترى في الشمس سوى نورها الذي يختلس النظر إلينا كل فترة وأخرى من تلك الفوهة بالأعلى، لا تعلم ما هي السماء

ولا الخضرة ولا الورد ولا حتى الطيور إنها لا تعلم سوى المجارير والجرذان المحيطة بنا وبعض الطحالب العالقة هنا وهناك، لا يوجد بمخيلتها سوى القذارة والظلام والروائح الكريهة حتى تلك الوحوش التي بالأعلى لم ترها ولا تعلم السبب الحقيقي لبقائنا مغمورين بهذا العفن هنا، هل تتخيل هذا؟".

فجأة صدر صوت من الجهاز اللاسلكي المعلق بالحائط ليقفز القائد على الفور ممسكاً إياه ليقربه من أذنه حتى يستمع جيداً وما سمعه كان مفرحاً لأقصى درجة. فلقد صرخ شخص ما منه قائلاً:" أيها القائد.. أيها القائد هل تسمعني جيداً؟ حسناً لقد تخلصت القوات منهم جميعاً وأخيراً أنتم بأمان.. أكرر أنتم بأمان فلتخرجوا من تلك الثكنات فوراً فلقد قضينا تماماً على الوحوش".

وما هي إلا دقائق حتى سمعوا أصوات المروحيات وأصوات النداءات المطمئنة لمن بالأسفل ليسرع القائد ومن معه من الجنود بالخروج للتأكد من صحة تلك الأخبار. لحظات وفتحت جميع المخارج وأمر الناس بالخروج وأخيراً من تلك المجارير لضوء الطبيعة وهوائها النظيف. من إحدى الفوهات برزت رأس الطفلة الصغيرة لتلتقطها والدتها بالخارج وتخرجها من تلك الفوهة القذرة لتلمس قدماها العاريتين ولأول مرة أرض مدينتهم وينغمس ترابها بين أصابعها الصغيرة لتصرخ في فرح :" إنها ناعمة يا أمي، الأرض ناعمة وأنظري لذاك المصباح الضخم إنه كبير جداً ولكنه منطفئ هل انتهت الكهرباء منه يا ترى؟ ولكن ما تلك الأشياء يا أمي المحترقة هنا وهناك؟ وما ذلك الشيء الصغير الجميل الأبيض؟" لتحتضن الأم طفلتها في فرح مجيبة:" مرحباً بك في مدينتك الجميلة يا صغيرتي، ومرحباً بك في عالمنا النظيف حتى وإن صار خراباً فمرحباً بك".

كانت تلك مدينة القاهرة يوم الأربعاء الثاني عشر من أبريل من عام الأربعين بعد الألفين . الخراب يلفها من كل جانب بسبب انتشار وباء قاتل يحول كل من يصيبه لوحش، دام أربع سنوات محاولاً القضاء على الجنس البشري ولكن محاولاته باءت بالفشل فلقد تمكن بعض البشر الأقوياء من الاختباء والمجابهة حتى تم القضاء على الوباء نهائياً مخلفاً وراءه الكثير من القتلى والجرحى جسدياً ومعنوياً وفي نفس الوقت نهوض الأمل من جديد.

النهاية

قصة : "آمال العجوز "

مقدمة

الفقد مؤلم .. قد تفقد ابناً ابنه اخاً اختاً والد والدة وطناً؛ الأمر شبيه بأن تفقد جزءاً من قلبك أو بأن تُسلب روحك وأنت على قيد الحياة ، بأن تغيب وأنت حاضر أو أن تبكي بلا دموع أو أن تتألم وأنت صحيح معافى، بأن تبكي بحرقة على اللاشيء أو أن تضحك بلا روح، تحزن في الفرح .. كم هو مؤلم هذا الفقد ...

في احدى ليالي أبريل المقمرة تاقت روحي للمضي قُدُماً إلى حيث اشتهت دوماً؛ إلى الترحال.. كم تمنت أن تصول وتجول في العالم أجمع، أن تتنفس بحرية، أن تبحث عن الجديد أن تُثابر وتغامر نِعم المغامرة؛ كم اشتاقت للسفر للبحث عمّا يُشبع رغبتها العارمة أن تستكشف العالم وتبحث عمّا يُلجمها، فمضت ومضيت ورائها إلى اللامكان حيث الطبيعة الغنّاء هي المُتحدث الوحيد؛ فكانت أولى رحلاتي إلى عالم العجوز الحالمة الآملة بالغد المُشرق ..

في منتصف طريقي الذي بدأته منذ الفجر شعرت بالتعب والانهاك الذي تغلغل في أوصالي فأردت التوقف لبعض الراحة ولإطعام بطني الهائج؛ فلمحت كوخاً من بعيد كان على جانب الطريق الذي سلكته فأسرعت إليه وقفت أمامه اطرق بابه لم انتظر كثيراً إذ فتحت لي الباب امرأة عجوز باسمة قائلة:" مرحباً بك يا ولدي ماذا تريد؟ "

فأجبتها على استحياء: اعتذر منك يا جدة لطرقي بابك في هذا الوقت ولكن طمعت في كرمك وحُسن ضيافتك لأرتاح ويستريح جسدي المنهك منذ الصباح ..

رحبت بي بمرح قائلة:" إن لم أرحب بك أنا فكيف سيرحب بي الله في جنته، تفضل وأدخل يا ولدي فالدار دارك قبل أن يكون داري وملاذي" ..

اندهشت لردها الجميل الذي أصاب قلبي قبل أن يصيب سمعي ودخلت؛ لأكون صادقاً فلقد رحبت بي الجدة كابن لها أطعمتني وسقتني مما أنعم بها الله عليها ارتحت وارتاح قلبي وهدأت روحي مذ رأيت الجدة، قضيت باقي اليوم لديها حدثتها عني وعن رحلتي وعن طموحي وهدفي في الحياة

كانت منصته لكل حديثي لم تمل أو تكل فدعت لي بأن ييسر الله لي طريقي وأن انجح في الوصول لهدفي، تساءلت كيف لجدة في مثل عمرها أن تبقى وحيدة في مثل هذا المكان لا تهاب قطاع الطرق ولا الحيوانات الضالة فابتسمت قائلة:" لقد اعتدت على الوحدة ولكن لا تنسى أن الله لا يترك عباده بمفردهم ولكن يدبر لهم امورهم وما علينا إلا السعي في الطريق القويم للوصول لمبتغانا الحقيقي" وبدأت تروي لي قصتها ..

"ولدت وترعرعت في هذا المكان حول عائلتي وجيراني، اتذكر حياتنا القديمة كما لو كانت بالأمس وكيف كانت جميلة و سعيدة، كنا نُحسن لبعضنا البعض لا نفرق بين اخ و اخيه ولا بين جار وجاره كنا كالجسد الواحد إلى أن آتى اليوم الذي طالت فيه ايادي اللصوص والطامعين حياتنا، نُهبنا وتهدمت بيوتنا واحترق سُكانها لم يميزوا بين كبير وصغير ولا رجل أو امرأة، فرقوا بين الاخوة ومن لم يخنع لهم قتلوه شر قتلة هربت أنا من بين ايديهم لم أُرد ترك بلدتي ورائي لكنني كنت مجبرة لم اعلم أين سأذهب ولا إلى من الجأ لم يكن معي إلا الله فهو المعين، سرت بغير وعي لم انظر للخلف خفت ان نظرت اجدهم ورائي لذا ركضت وركضت إلى أن سقطت مغشياً علي من التعب ولم افق إلا في اليوم التالي إذ وجدت نفسي في منزل دافئ استشعرت فيه دفئ بيتي تمنيت لو اني فعلاً بالبيت وأن ما حدث ليس إلا حلماً بشعاً ولكن خاب ظني فأقبلت سيدة ناحيتي تطمئن علي وعلى حالي اخبرتني أنها وجدتني في الطريق بلا رفيق وحالي لم تكن جيدة وملابسي تمزقت، فرقت لحالي واحضرتني لبيتها اكرمتني واحسنت ضيافتي، حدثتني عن نفسها فهي وزوجها بمفردهما في هذا البيت وهو غالباً ما يرتحل ليبحث عن قوتهم، رحبت بي لأمكث معها إلى أن يتحسن جسدي المنهك ويقوى عودي اطمأننت لها فأخبرتها بما حدث.. دمعت عيناها وجُرح قلبها لما حدث فأخذت تُصبرني وتحثني على التحمل وتذكرني بأن الله لا يُضيع عباده الصالحين فأطمأننت لحديثها فقد كان بمثابة الدواء لروحي الجريحة.

وبعد مرور عدة أيام تحسن حالي وودعتها وانصرفت ابحث عمّا يعيد لي همتي ويجدد الأمل بقلبي وفي طريقي وجدت بلدة رحب بي أهلها وعاملوني كما لو أني فرداً منهم وجدت سكناً وعملاً ولكن الحال لم يدم طويلا فقد هجم على البلدة قُطاع طرق ولصوص كهؤلاء الذين دمروا بلدتي وفعلوا بها ما فعلوه بنا ولكن هذه المرة دافع عنها الرجال والنساء حتى الأطفال كان لهم دور في الدفاع عن دارهم قاوموا حتى خارت قواهم فاستبد اليأس بقلوبهم واذعنوا لهم في النهاية إذ وجدوا أنهم أقل عدداً منهم وأقل عتاداً واستولى الغاشم على البلدة ولكني هربت مع القليل وتفرقنا؛ حزنت لحالي وهروبي المتكرر فأقسمت على أن أعود لبلدتي الأم واعيد بنائها حتى

اعيد للماضي أمجاده وادافع عنها حتى الممات حتى وإن كنت بمفردي؛ لا مزيد من الهرب ولا الخوف سأدافع عنها فإما أن احافظ عليها او أموت شهيدة على أرضها ..

عدت لموطني فوجدته قد صار خراباً فوق خراب لم يبقوا به ما يدل على الحياة ولكني لم ايأس فشرعت في تجديده وبناء أساسه ولحسن حظي وجدت من يساعدني فارس مغوار عهد له الناس بالأخلاق الحميدة ونصرة المظلوم واعلاء كلمة الحق، اكتفينا بالله فهو خير معين ومعاً اعدنا للأرض مجدها واستمر الحال أعواماً عديدة إلى أن ارتقت روحه للبارئ وخارت قواي فعادت أنظار الطامعين لبلدتي ولازالوا يعبثون بها ويكيدون لي المكائد إلى تلك اللحظة، لم يعد الجيران بقربي فكل خائف على حاله وماله بقيت وحيدة ولكن ربي خالقي لم ولن يتركني إلى قيام الساعة وسيأتي ذلك اليوم الذي سينهض من عتمتي نوراً ويعيد لي صفائي وبهجتي ويدافع عني وعن أرضي ..

تذكر يا ولدي قصتي واقصصها لابنائك وذويك واذكرها في كتب التاريخ حتى لا ينساها الناس فهذه قصتي **قصة فلسطين العجوز** ..

وفي الصباح ودعت العجوز وخرجت لطريقي لا تفارق خيالي العجوز وقصتها، ظللت أردد كلامها مراراً وتكراراً وحدثت نفسي:" سيتذكر الناس قصتك يا فلسطين وسنتباهى بك أمام الجموع؛ ستتحررين قريباً باذن الله"..

لن أقول النهاية ولكنها حتماً ستكون البداية

الفهرس:

1) معاناة.
2) لماذا يلحدون.
3) ثغرة امل.
4) آمال العجوز.